رواية أحلام موؤودة
للكاتب
الحسن تيت بلال

إهداء

أمي أيتها العظيمة ..... أنتِ التي صنعتِ مني رجلا سَوِيا ؛ فلذلك يحقق لكِ أن تفخري . إليكِ أهدي هذا العمل ، خذيه خالصا لكِ دون الناس ، فَلْتُصْغِي عِقْدا في جِيدِك.

في و سط الغار ذات أصيل جلس غيلان على سجادة محشوة لِيفًا يتأمل الحياة التي يعيشها مجتمعه وكان قد اعتزلهم منذ نعومة أغفاره؛ حيث حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يتزود ويذهب إلى الغار؛ فيمكث فيه الليالي ذوات العدد.

وكان المجتمع يتجلبب بديثار ظلام دامس إذا أخرج الناظر يده فيه لم يكد يراها: ظلم، بطش، وعبادة المال .....

وتسارعت الأيام وغيلان يغدو، ويروح كالطير من أوكارها إلى الغار مواصلا فيه تحنثه إلى أن برز له ذات ضحى وهو قائم يصلي الملهم، وكان قبل أن يبرز له عيانا يأتيه في المنام ثلاث ليال سويا فضمه إليه قائلا: اذهب ..... فقال: إلى أين أذهب؟ فضمه مرة أخرى وهو لا

يزيد على أن يقول له: اذهب، وغيلان يجيبه: إلى أين أذهب؟ قال: اذهب إلى قومك فأيقظهم من السبات العميق؛ فأصابه ذعر شديد، فعاد إلى زوجته وهو يفرق خوفا ويتصبب عرقا مرددا: زملوني ..... زملوني، فتلقته مطمئنة إياه قائلة له: لا يخزيك الله أبدا فإنك لتحمل الهم وتقر الضيف، فسكن روعه وهدأ جأشه.

ولما هدأ عن غيلان الروع واطمأن بكلام زوجته أخبرها بالحادثة التي وقعت معه، فانطلقت به من فورها إلى الحكيم ليسمع منه.

وعندما جاءت به إلى الحكيم شرع يسرد عليه قصته، فقاله الحكيم: أي بني إن هذا الذي

أتاك هو الملهم، ثم صك وجهه وتأوه تأوهات أحزنت الحضور وتساقطت من مقلتيه اللتين يحر سهما شعر كالحليب أدمع تذيب الصخر قائلا: ليتني كنت فيها جذعا أنصرك حين يطردك مجتمعك، فقال غيلان في حيرة: أطاردي هم؟ قال: بلى.

وما لبث أن توفي الحكيم بعد الحادثة بأيام معدودات.

عاد غيلان وزوجته ميمونة إلى المنزل وهو مشغول التفكير بكلام الحكيم، فلمحت ميمونة ذلك عليه، فقالت له: أي عزيزي ما الذي يشغل تفكيرك؟ فقال لها: أنا حائر في كلام الحكيم ولا أدري ما الذي سيحل بنا؛

فقالت له وهي تحيط رقبته بذراعين لينين كالحرير:

لا تقلق يا زوجي العزيز ستكون الأمور على ما يرام، ثم تبسمت عن ثغر منتظم كعقد جمان، وقالت: إذن لي بالذهاب إلى المطبخ كي أعد لك ما تأكله لا شك أنك تشعر بالجوع.

بعد نهاية العشاء جاء النوم يتسبب إلى عيني عمار فخلد إلى سبات عميق أورثه نيسان كل الهموم التي كانت تراوده، ورأى تلك الليلة أحلاما جميلة أ سعدته كثيرا، ولم يزل سابحا في تلك الأحلام حتى أيقظته زوجه ميمونة لصلاة الصبح.

فانتبــه وهــو يضــحك با سما، فســألته ميمونــة - أضــحك اللــه سن زوجــي العزيــز - مــالي أراه يضحك، فقال لها:

- أصلحك اللـه يـا زوجتـي البـارة - لقـد رأيـت هـذي الليلة عجبا.

فنظـرت إليـه باهتمـام أكثـر قائلـة أخبرنـي. فقـال لهــا: رأيتنــي وقــد أتــاني رجــل حســن الهيئــة شــديد بيــاض الثيــاب، شــديد سواد الشــعر لــم أعرفه لا يبـدو عليـه أثـر السـفر حتـى جلـس عنـد رأ سي وأدخـل يـده تحـت رأ سي وحركنـي برفـق وناجـاني بلطـف يـا غـيلان قـم ... قـم، ا ستيقظ، فرفعـت رأ سي متطلعـا إليـه وعينـاي لمـا يـذهب عنهمـا الكـرى بعـد، وجعلـت أعـالج القعـود فقـال لي:

على ر سلك وناولني إناء فيه ماء لم أر مثله قط، وقال لي: اشرب من هذا الماء واغتسل بالباقي، وارتدي أحسن ثيابك؛ لأن في انتظارك تا الليلة حفل بهيج.

فدخلت البيت وارتديت أحسن ثيابي، ثم خرجت بصحبته حتى جِزْنَا المدينة؛ فإذا جواد أبيض يتدفق منه البياض كزبد الحليب، فقال لي: تفضل يا غيلان فاركب هذا الجواد الذي أُرْسل إليك ليكون مطيتك

في هذه الرحلة.

فركبته وأخذ الرجل زمامه فانطلقنا وكان أ سرع من البرق يضع حافره حيث ينتهي طرفه، وما هي إلا لحظات حتى وصلنا البيت المقدس، فحططنا رحالنا هناك، وكان في

الجانب الغربي من البيت حلقة فربط فيها الجواد، ثم التفت إلى عرصات البيت فإذا به جمع ظفير من الرجال مصطفين كأن وجوههم كوكب دري شديد الإضاءة، فقلت لرفيقي: من هؤلاء القوم، قال: هؤلاء إخوتك كانوا ينتظرونك منذ أمد بعيد، فا ستعد لتصلي بهم.

ثم ثوب للصلاة، فتقدمت وصليت بهم ركعتين، ثم وضع لي منبر من نور فصعدت عليه، وجعلت أخطب فيهم بكلام لم أستحضره من قبل ولا من بعد.

فكانوا يستمعون إلي باهتمام مطأطئي الرؤوس كأنما عليها الطير.

ولما انتهت الخطبة قال لي رفيقي: انظر إلى الأفق، فنظرت إليه فإذا سلم مرصع بأنفس أنواع الجواهر واليواقيت التي رأتها عيني من قبل متدل من السماء صوب الأرض فتعجبت من حسن منظره مسرورا، ثم سألت رفيقي عنه فقال لي: هذا معراجك إلى السماء والملإ الأعلى فتهيأ له.

ثم رقينا إلى السماء الدنيا فا ستفتحنا فأذن لنا، فدخلنا فمررنا برجل ذا هيئة حسنة وعليه المهابة، فقال لي رفيقي: هذا عبد الله بن يا سين زعيم المرابطين تقدم فسلم عليه، فهرولت نحوه بأدب و سكينة حتى جلست بين يديه، مسندا ركبتي إلى ركبتيه وواضعا يدي على فخذي فقلت له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله

وبيـاكم، أيهـا الـزعيم العظـيم أنـت الـذي كـان لـك فضل عظيم في دخول الإسلام في موريتانيا.

أصـحيح كـل مـا رووه عنـك مـن بطـولات؟ ومـا سطروه عنك من حكايات؟

فتبسـم ذلـك الشـيخ الجليـل ذو اللحيـة الكثيفـة مسـرورا بكلامـي ثـم تربـع جالسـا بعـد أن كـان متكئـا باهتمـام ثـم قـال لـي: يـا بنـي: لعلـك بالغت في تقديري وإطرائي.

ثـم رقينـا إلـى السـماء الثانيـة، فا ستفتحنا، فـأذن لنا فلقينـا يو سف بـن تاشـفين فقـال لـي رفيقـي دونـك أميـر المـؤمنين اذهـب فـألق عليـه التحيـة. فتيممتـه ونفسـي تفـيض شـوقا كمـا يشـتاق الفيـل إلـى أرض الهنـد حتـى انتهيـت إليـه، فألفيتـه جالسـا على كر سي عظـيم عليـه مـن

تصانيف الياقوت والزبرجد شيء لم أره من قبل ولا من بعد.

فحاولت تقبيل يده فهش في وجهي بشرا و سرورا، ثم قال لي: (فليباركك الله، لا داعي لتقبيل يدي)، فباردته متلعثما وكلماتي تتقطع كخرزة عقد قديم إنني يا أمير المرابطين من أكثر خلق الله إعجابا بك، فلا تحرمَنِّي من لذة الا ستمتاع بقربك ولثم يدك، كنت أقرأ عنكم مذ كنت حزْورا، لقد كانت لكم اليد الطولى والحظ الوافر في توطيد أركان دولة المرابطين وما حولها من القرى حيث نشرتم في ربوعها الإ سلام والدين عطرا شرقا وغربا وأدنيتم منكم العلماء حتى غدا الجهل عنقا مغربا.

ومـــا إن أتممـــت كلامـــي حتـــى مـــد لـــي يـــده المباركـــة فلثمتهـــا، ثـــم سألته عـــن أشـــياء كثيـــرة أجـــابني عليهـــا و سكت عـــن بعضـــها. فلـــم أشـــأ أن أراجعه لما كان يعلوه من الهيبة،والوقار.

وبينمـــا أنـــا أ ستمع إلـــى منطقـــه الـــذي لـــه حـــلاوة وعليه طلاوة إذا رفيقي يؤذنني بالرحيل.

وعنـــدما وصـــلنا إلـــى الســـماء الثالثـــة طلبنـــا الإذن ، وكـــان يـــؤذن لنـــا بعـــد الســـؤال عـــن ا سمينا والترحيـــب بنـــا أشـــد ترحيـــب ، وكـــان لقاءنـــا هـــذه المـــرة لقـــاء لـــيس كغيـــره مـــن اللقـــاءات الســـابقة ، حيـــث كـــان مـــع الـــولي الجليـــل والعـــارف باللـــه العظـــيم بـــلال ، فـــدنينا منـــه وهـــو متربـــع في و سط زاويتـــه يتلـــو أوراده ، وحـــين فطـــن لنـــا تهلـــل وجهـــه كأنـــه مذهبـــة مرحبـــا بنـــا فلـــم أتمالـــك

نفسي حتى جثيت على ركبتي منكبا على تقبيل رجليه الطاهرتين طهارة الحجر الأ سود لكنه لفرط تواضعه لم يقبل ذلك ، حيث أجلسني عن يمينه وشرع يلاطفني فقلت له : اعهد إلي أيها الشيخ الصالح ، فقال لي :هل معك حبر وقرطاس ، فجعلت أتحسس جيبي لأخرجهما منه ، لكني نسيتهما في البيت قبل أن أذهب في رحلتي هذه، فالتفت

إلى رفيقي التفات السائل عن الشيء ، فناولني إياهما قبل أن أتكلم، فأخذتهما ، وقلت وأمارات الاهتمام بادية علي : كلي آذان صاغية إليكم ، أيها الولي العظيم .

ثم واصلنا مسيرنا حتى بلغنا السماء الرابعة فا ستأذنا بالولوج، فأذن لنا مع الترحيب

والزغاريد التي ذكرتني بأيام الزهور مذ كنت في البادية والليالي المقمرة التي كنت أ سهر فيها رفقة أصدقائي نلتحف السماء ونفترش الأرض.

وما إن تجاوزنا عتبة الباب حتى أبصرت ذلك الزعيم الذي طالما سمعت عنه وقرأت عنه في الابتدائية ، والإعدادية ، فالجامعة .

إنه القائد الهمام ، والأ سد الضرغام الذي قهر بقوته وحنكته الفرنسيين . إنه بكار ولد اسويداحمد.

سلمت عليه وأنا ملئي الاحترام والتقدير، وكان يتقلد بندقيته، كأنه يستعد للمواجهة، قلت له إني بك من أول المعجبين، فقال لي بارك فيك يا بني، وأجلسني بين يديه ثم سألني

وإشارات الهيبة والإجلال؛ حيث قال لي: أنت قادم من بلاد شنجيط، كيف تركتها؟ فأجبته، والعبرة تخنقني والدموع تنحدر على خدودي: يا سيدي عاث القوم في الأرض فسادا: قتَّلوا الأولاد وا ستحيوا النساء، صار القوي منهم يهيمن على الضعيف، فكأنهم في غيهم فرعون، وفي تجبرهم النمروذ، لوكنت بينهم لأسفت على حالهم ولنعيت أفعالهم.

ثم صعد بي رفيقي إلى السماء الخامسة ، فلقينا شيخ الإ سلام ، وعلم الأنام كمال الدين الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبه ، قطب زمانه ووحيد عصره وعلامة دهره الحبر البحر الفهامة ، من أصلح الله به الأمة وأقام به الحجة وأخرج به البلاد من كوارث الفتن والسيبة ؛ كان لفتواه في شأن دخول

الفرنسيين البلاد أثر بالغ ؛ لأن البلاد حينئذ كانت ترزخ تحت وطأة الإمارات القبلية ، وعندما جاء الله بالفرنسيين إلى هذه البلاد كان مجيئهم نعمة من الله وتوفيقا لأهل هذه البلاد عامة من جهة وللشرذمة المستضعفين بين القبائل من جهة أخرى ،لأن الحياة في هذه البلاد كانت أشبه بالحياة التي كانت تعيشها قريش في جاهليتها.

ولما أراد الله أن يرحمهم بعث إليهم الفرنسيين بفتوى من الشيخ سيديا ، فبدأت البلاد تستنشق عنبر الحرية وتتسلق معراج الذاتية ، بينما كان يعتقد البعض أن فتوى الشيخ مخازفة ومصادرة للبلاد ومؤامرة ونكاية بها مع الأجانب الغاصبين ، ولعمري إنها لفضيلة ما فوقها فضيلة وحسنة تشع نورا

أضاء كل فدفد من ربوع البلاد مما ينبيك عن عمق نظرالشيخ واتساع فكره ، ولاغرو ؛ فهو من أولياء الله العارفين ، ومن عباده المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ثم صعد بنا إلى السماء الساد سة فا ستفتحنا، فقيل من هذا؟ قال رفيقي: هذا غيلان. قيل: أبعث إليه؟ قال: نعم. قيل: أهلا ومرحبا به.

وكانت السماء الساد سة مزينة بأنواع الزينة حتى خِلْتُ أنني في جنة الخلد حيث النمارق مصفوفة والزرابي مبثوثة، وحور العين ترقص رقص السكران وتعزف على العود فتصدر ألحانا لو سمعها زرْيَابُ لحلف بالطلاق ثلاثا ألا يعزف على العود بعدها استحسانا وإعجابا.

وواصلنا المسير حتى انتهينا إلى خيمة عظيمة حمراء ذكرتني بتلك الخيمة التي كانت تضرب للنابغة الذبياني بعكاظ؛ فتعرض عليه الشعراء فيها أشهارها.

وإذا بتلك الخيمة أحمد بن الأمين جالسا على كر سي من ذهب والشعراء يتهافتون إليه من كل حدب وصوب لعرض أشعارها عليه.

فجاء محمد اليدالي وألقى مديحيته المشهورة التي مطلعها:

صلاة ربي مع السلام على حبيبي خير الأنام

وجاء محمد ولد الطلبه فألقى قصيدته التي مطلعها :

تأوبه طيف الخيال بمريما فبات معنى مستجنا متيما

ثـم أقبـل بـوفمين المجلسـين وقـال حنينيتـه التـي تتفجـر شـوقا ولوعـة إلـى الأهـل والأحبـاب ، ومطلعها :

أحِنُّ إلى ترقى ووادي أضائها وهل لي إلى واد الأضاء سبيل

ومـا إن أنهـى بـوفمين المجلسـي تلـك القصـيدة حتـى أقبـل ول رازكـه يتـرنم بمديحيتـه التـي تصـنف مـن عيـون المعلقـات التـي قيلـت في الجانب النبوي الشريف ومستهل القصيدة هو :

غرام سقى قلبي مدامه صرفا ولمَّا يقم للعذل عدلا ولا صرفا

ومـا كـاد يخـتم ول رازكـه القصـيدة حتـى أقبـل المختـار بـن بونـه الجكنـي ، وشـرع يتلـو نونيتـه الشهيرة :

حـدت حـداة يحـي بـن عثمانـا إبلـي بزيـز فـان رمـوا فوازانـا

ونحـن ركـب مـن الأشـراف منـتظم أجـل ذاك الخلـق قـدرا دون

قـد اتخـذنا ظهـور العـيس بهـا نبـين شـرع اللـه تبيانـا

ثــم صــعدنا إلــى الســماء الســابعة ، فا ستفتحنا ففــتح لنــا ، فتقــدمنا حتــى أوشــكنا أن نصــل روضــة المنتهــى ، فــإذا صــاحبي يتوقــف ، فقلــت له : يا صديقي لم توقفت عني ههنا ؟

أفي هــذا الموضــع يتــرك الصــاحب صــاحبه ؟ قــال لــي :يــا غــيلان ، أعــذرني لا أ ستطيع أن أتقــدم قيــد أنملــة أكثــر مــن هــذا ، المقــام مقامــك ؛ فتقدم ، ولا تخف .

وبعــد مضــي لأيٍ تقــدمت وشــعور غريــب ينتــابني لــم أعهــده مــن قبــل يســري في هيكــل عظــامي كمــا تســيري الخمــرة في عقــل الســكران مــن أخمــص قــدمي إلــى شــعر رأ سي ، وعنــدما بلغــت روضــة المنتهــى نــاداني منــاد يــا غــيلان مرحبــا وأهــلا بــك أيهــا الزائــر الميمــون ، لقــد انتظرنــاك

مذ أمد طويل ، تعالى هذه روضة الخلد تزينت فرحا بمقدمك .

ثم جاءني خازن الروضة و سلم علي بكل احترام وتقدير وأركبني على جواد أبيض كلون الحليب ، وطاف بي الروضة زاوية زاوية ، وفدفدا فدفدا ؛ فرأت عيني من عجائب الخلق وغرائب الكون ما لم أره من قبل .

ثم أتى بي قصرا منيفا فيه السرر المرفوعة والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة ، والأكواب الموضوعة .

وكان في الروضة مجلس طرب وغناء ؛ فقال لي الخازن : هل لك في هذا المجلس ؟

قلت : إنها أمنيتي ، فقال : انطلق بنا إليه ، وكان في الجانب الغربي من الروضة .

قلت من هي المغنية التي ستتحفنا بتزميرها ، سمها لي لعلي أعرفها ، وكنت امرأ ولوعا بالغناء والطرب من الصغر إلا أن نزعتي الصوفية قد تغلب علي في بعض الأحيان .

قال لي : الفنانة الكبيرة وأيقونة الطرب في موريتانيا ديمي بنت آبَّا ، فوجدناها تعزف على عودها ، وتترنم بأبيات نزار قباني :

قولي أحبك كي تزيد وسامتي فبغير حبك لا أكون جميلا

تارة تتلو أبياته الأخرى :

ما ذا أقول له لو جاء يسألني إن كنت أهرهه أو أهواه ؟

فكأن صوتها مزمار من مزامير آل داود ،فلو سمعها الحلاج لسلا عن ورده ، ولو سمعته رابعة العدوية لسلت عن وردها كذلك .

قلت لصديقي لما انفض مجلس الغناء ما أحسن هذا ! وما أطربه ! إن لكل شيء لذة ، ولذة العين النظر إلى المناظر الخلابة ، والفنون الجميلة ، ولذة الأذن الا ستماع للأصوات الموزونة ، والنغمات الملحونة ؛ وهي غذاء الروح وجمالها ، وزينتها ، وحسنها .

قلت لرفيقي بعد الانتهاء من التجوال في روضة الخلد: إني أوَدُّ رؤية نار الجحيم كي أطلع على ما أعده الله فيها للمجرمين .

فذهب بي إلى هَنَّا ؛ فرأيت أخاديد تتفجر كالبركان والزبانية منتشرون حولها يوقدون النار بالناس والحجارة ، فانتابتني خيفة في نفسي إلا أن صديقي فطن لي فبادرني قائلا

: غـيلان لا تخـف ، وكنـت أردد بقلبـي (وَقُودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

كـان مشـهدا رهيبـا تنشـق لـه الأرض وتخـر لـه الجبال هَدًا، ويجعل الولدان شيبا.

وأقـوام فيهـا يصـطرخون مـن شـدة مـا يجـدون مـن الألـم عرفـت بعضـهم با سمه ، وبعضـهم لـم أعرفـه ، وإذا رجـال مـنهم يعـذبون عـذابا لا يعذَّبُـه أحـدا غيـرهم سألت صـديقي عـن سببه ، فقـال لـي : هـؤلاء هـم كبـراء القـوم الـذين كـانوا يسو سون النـاس في الـدنيا ، ويقـودونهم ؛ لكـنهم لـم يحكمـوا فـيهم بالعـدل ؛ وإنمـا حكمـوا بـالجور والظلـم ؛ فهـذا جـزاؤهم خالـدين فيـه أبدا.

ورأيت أشياخا ذا لُحًى طويلة تجرهم الزبانية بها ، سألت رفيقي عنهم مستغربا ، فقال لي : أولئك فقهاء الحكام الأولى يأكلون المال العام ، ويفتون بالهوى .

ثم رأيت رجالا لهم مخالب من حديد تحسبها مخالب أسد يريد أن يهجم على فريسة ، فسألت صديقي من هؤلاء الرجال ؟ قال : هؤلاء هم الذين تسيطر عليهم أزواجهم في المنزل ، ولا يقيمون عدلا ، ولا صرفا ؛ وإنما الأمر والنهي للنساء فقط ؛ فقلت : سحقا لهم خابوا وخسروا .

وذكرت حديث النبي صلى الله عليه و سلم : (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) ، قال : صدقت.

ثـم قـال لـي رفيقـي متبسـما : غـيلان آن لنـا أن نعـود أدراجنـا ، فقلـت لـه : ودِدْتُ أنَّـا أطلنـا المكـث ؛ فقـال لـي : لا بـد أن نعـود ، ولقـد رأيـتَ ، ولقيتَ تا الليلة عجبا .

فأتـاني بمطيتـي ، وانطلـق بـي كلمحـة البصـر أو أ سرع مـن ذلـك حتـى حططنـا رحالنـا عنـد بـاب داري ، ولمـا ينـبلج الصـبح بعـدُ ، وهـم بالـذهاب ، فقلـت لـه بعبـرة تـذيب الحجـر هـل ستغادر وتتركنـي ؟ لقـد سررت برفقتـك مسـتمعا ، ليتـك مكثت معي كثيرا ، فأنشد بيت المتنبي :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وانصـرف عنـي فجعلـت أتتبعـه ببصـري حتـى تـوارى عنـي في سواد الليـل ، وأنـا أردد في نفسي قول الحارث بن حلزة اليشكري :

آذنتنا بينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

ثـم دخلـت الـدار بهـدوء مخافـة أن أوقـظ أهلهـا ، وتوجهـت إلـى سريري ، فألفيـت زوجتـي ميمونـة مـا تـزال تسـبح في سباتها ، وكـان في الغرفـة التـي تنـام فيهـا كُـوَّةٌ تطـل على الشـرق ؛ فكـان القمـر بازغـا كـالكرة الفضـية ؛ وهـو يبـدي نصـفه ، ويخفـي نصـفه الآخـر كأنـه يلعـب مـع النجـوم لعبة " الاختفاء "

وقفـت بقـرب ميمونـة ؛ وهـي نائمـة تتقلـب في لحافهـا تقلـب السـمكة في المـاء ، وتـارة تهمهـم بكلمـات متقطعـة، فاقتربـت منهـا ؛ فـإذا هـي تقـول ا سمي ؛ فتبسـمت حُبـورا بـذلك ، وهممـت أن أوقظهـا ؛ ولكنـي ضـربت صـفحا عـن ذلـك ، وخلعـت ملابسـي إلا لبسـة المُتَفَضِّـل ، ونمـت بجانبها حتى الصباح .

ولمـا كـان الصـباح انتشـر الخبـر في المدينـة كالمسـك ، فانقسـم النـاس زُرافـاتٍ ووِحْـداناً بـين مصـدق بـالخبر مُقِـرٍّ بـه وبـين منكـر لـه مسـتهزئ أشد الاستهزاء .

ولمـا كـان في الغـد لقـي غـيلان صـديقه بـلال ، فبثـه أمـره ؛ فسُـرَّ بـذلك وهنئـه عليـه ، ثـم إن غيلان دعاه لمساعدته ، واتباعه ، فوافق .

وكـان وقـع خبـر إ سراء غـيلان على أشـراف القـوم كوقـع الحسـام على أعنـاقهم ، وشـرعوا يفكـرون في الطريقـة التـي تمكـنهم مـن القضـاء على غـيلان قبـل أن تقـوى شـوكته ؛ فعقـدوا اجتماعـا حاشدا حضره أغلبية كبرائهم، ورؤسائهم .

وكـان مـن نتـائج هـذا الاجتمـاع أن اعتقلـوا أصـحاب غـيلان ، وكـان غالبيـة أصـحابه مـن أراذل

الناس الذين لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ، ولا يدفعوا عنهم ضرا .

ثم انفض المجلس بهذا القرارالذي تتفطر منه السماوات وتنشق منه الأرض ، وتخر له الجبال هدًا .

وما ينقمون منهم إلا أنهم رأوا الحق بعين البصيرة فنبذوا حياة الذل ، واشرأبت نفو سهم إلى حياة الحرية.....إلى الحياة الإنسانية التي فطر الله عليها خلقه أول مرة.

ولكن الليل مهما طال فلا بد للصبح أن يتنفس ، ولا بد للريح أن تهب ، و سوف يُظْهِرُ الله قرن الحقيقة للعيان كالبدر في السماء ليلة أربع عشرة .

وأذاق القـوم أصـحاب غـيلان أنواعـا مـن العـذاب لا يعلـم شـدتها إلا مـن ذاقهـا ، فكـانوا يأخـذون الرجـل مـنهم ويخرجونـه إلـى السـاحة العامـة ظهـرا حـين يشـتد القـيظ ويضـجعونه على ظهـره مجـردا مـن ثيابـه إلا مـا يـواري سوأته المغلظـة في ذلـك الحـر الشـديد اللهيـب الـذي يُصْـهِرُ الصـخر الأَصَـمَّ ، ثـم يضـعون على بطنـه الحجارة التي تنوء بالعصبة أولي القوة .

وتـرى أفـواههم يتطـاير منهـا صـنوف الشـتم واللعـن كاللهـب ؛ وربمـا تعالـت أصـواتهم بالضـحك والسـخرية التـي تجـد ريحهـا المنتنـة مـن مسـيرة ألـف عـام : ارجـع عـن طريـق غـيلان ، واكفر بـه ..... ارجـع عـن طريـق غـيلان ، واكفـر بـه لعلنـا نخفـف عنـك ، وتسـتريح مـن هـذا العنـاء

الـذي لا طائـل مـن ورائـه ، وألزمـت نفسـك بـه ، ارجع أيها الشقي .....

ولا يـزال اشـبيلو مصـرا على موقفـه لا ينـي عنـه ولا يرعوي ، يردد بيت الشاعر : فاضل أمين :

إن يقهروا جسدي فإن إرادتي أقوى من الليل المخيم في الثرى

وبيت الشاعر: أبو القاسم الشابي :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

يسـمعها كـل مـن دنـا منـه ، ثـم يواصـون في تنكيله وتعذيبه .

ولمـا رأى غـيلان مـا أصـاب أصـحابه مـن التعـذيب والتنكيـل الـذي يـذيب الحجـر أمـرهم بـالهجرة إلـى أرض الملك العادل .

فهاجروا إليه متخفين تحت جنح الليل حتى وصلوا إلى تلك البلاد ؛ فرحب بهم الملك أيما ترحيب .

وعندما علم القوم بالخبر ثارت ثائرتهم ، وقامت عليهم الدنيا ولم تقعد ، ثم أوفدوا وفدا محملا بأنفس الهدايا إلى الملك التما سا منه وطمعا فيه أن يعيدهم إليهم .

ولما دخل الوفد إلى الملك قدموا له الهدايا و سجدوا بين يديه ، ثم أطلعوه على نياتهم وأغلظوا في الحجة حتى كاد الملك يقتنع بكلامهم ، ودعا أصحاب غيلان .

وعندما مَثُلَ أصحاب غيلان بين يدي الملك طفق يسألهم عن جلية الأمر، فانبرى له ا سليمان خطيبا ، وكان قد قدمه غيلان على

أصحابه : أيها الملك العظيم : كنا أهل بطش وظلم ، يأكل القوي منا الضعيف ، وكانت حياتنا ، تشبه حياة الأنعام حتى جاء إلينا رجلُ منا نعرف صدقه ، وأمانته ، فدعانا إلى السماحة والسلام والأمن ، والإخاء ؛ فثار علينا قومُنا ؛ فسامونا سوء العذاب ، وكدروا عيشنا ، وضيقوا علينا، ووقفوا لنا كل مَرْصَدٍ ، فأمرنا سيدنا بالمسير إليك، وأخبرنا أنك ملك عادل لا يظلم أحد لديك .

فأطرق الملك لحظة ، ثم طأطأ رأسه ، وانحدرت من مقلتيه دمعة كالسحابة بلت لحيته ثأثر منها جميع جلسائه ، ثم التفت إلى ر سولي القوم قائلا لهم : لن أردهم عليكم أبدا ، ارجعوا بهداياكم خائيبين .

ثـم قـال لأصـحاب غـيلان اذهبـوا أنـتم الطلقـاء لا يتعـرض لكـم أحـد بسـوء في أرضـي هـذه،أقيموا فيها ما طاب لكم المقام .

دارت عجلـة الـزمن بسـرعة كـالبرق الخـاطف ، وظـن غـيلان أن قومـه سيتغيرون ، لكـن الـزمن لـم يـزدهم إلا عُتُـوًا وتجبُّـرًا ، وضـاعفوا على أصـحابه المضـايقة والتعـذيب بشـتى أنواعـه ؛ مِمَّـا أجَـاءَهُ إلـى التفكيـر بطريقـة يخلـص بهـا أصحابه الباقين من هذا الوضع الذي أَلَمَّ بهم .

فخـرج ذات يـوم إلـى قريـة غيـر بعيـدة مـن المدينـة يلـتمس مـنهم المعونـة ، لكـن المفاجـأة كانـت صـادمة جـدا ، لـم يسـتقبلوه بعـزف النـاي، ولا صـب الشـاي ، ولا رقـص الحسـنوات ؛ وإنمـا تلقـوه بأشـد مـا يمكـن أن

يُتَخَيَّلَ من أنواع الأذى ، حيث أقاموا صفين مثل السد المنيع في طريقه ، وجعلوا كلما خطا خطوة إلى الأمام أو الخلف رموه بالحجارة حتى التصقت قدماه التي كانت تتفطر دما على نعليه .

بدأت عقارب الساعة تشير إلى وقت الظهيرة وطفقت الشمس تنحدر إلى الميلان غربا وأقبل غيلان وكله هَمٌّ وغَمٌّ بسبب ما لقيه من أهل تلك القرية ، ثم دخل بيته ، فتلقته زوجته برفق وحنان ، و سارعت تغسل عنه الدم قائلة ؛ وهي تبكي : قبح الله قوما فعلوا بك هذا ، فقال لها : أي زوجتي الغالية الحنونة إن زوجك جاء بأمر لن يبقى منه بيت مدر ولا حجر إلا دخله بِعِزٍّ عزيز أو ذُلٍّ ذليل .

ثـم فكـر مليـا في الهجـرة مـن هـذا المكـان إلـى مكان آخر يتسنى له بث أفكاره فيه .

وبعـد أيـام غيـر كثيـرة مـن الحادثـة أتـاه الملهـم في المنـام ، وأخبـره بـأن يهـاجر ؛ فـذهب غـيلان إلـى صـديقه بـلال وبثـه خبـره ، ففـرح بـذلك جَـذَلاً ، وطلـب منـه أن يـأذن لـه برفقتـه في هجرته .

و سار غـيلان ورفيقـه بـلال نحـو الأرض الطبيـة ؛ وهـو حـزين قلبـه يكـاد يسـقط كمـدا ؛ وهـو كظـيم ، يُؤَمِّـلُ أنـه سيؤوب ذات يـوم لـيخلص أصحابه ويـزرع الأرض عـدلا وقسـطا بعـد مـا كانـت ظلما وجورا .

انتهى

بتاريخ : 30-04-2025م ، نواكشوط ، منتصف الليل .